الفصل الثانى

مع صلاح الدين الصفدى
فى نصرة الثائر على المثل السائر[1]

تقديم

هذا الكتاب « نصرة الثائر على المثل السائر » – كما يدل اسمه – ردف لكتاب « الفلك الدائر على المثل السائر » ، وتتمة له ، بل يمكن القول بأنه استدراك عليه .

* * *

وهو مثله نقد لبعض ما ورد فى المثل السائر من نقد ، لكن فى شىء غير قليل من الموضوعية والاحترام للطرف الآخر ، وربما الثناء عليه والدعاء له .

---

(١) هو خليل بن الأمير عز الدين أيبك بن عبد الله الصفدى صلاح الدين أبو الصفاء ولد فى صفد بفلسطين سنة ٦٩٦هـ ومن هنا جاءت نسبته إليها .

قال عن نفسه : إن والده لم يمكنه من الاشتغال بطلب العلم حتى استوفى عشرين سنة فطلب بنفسه وقال الشعر الحسن ، ثم أكثر جدا من النظم والنثر والترسل والتوقيع . ولما لم يجد لدى علماء بلده ما يرضى عقله ويشبع مواهبه رحل إلى دمشق وقد برع فى الأدب نثرا ونظما وتأليفا وتصنيفا .

وأجمع شيوخه لهذا على تقديره والإعجاب به ، حتى لقد أذن أستاذه ابن سيد الناس له بإصلاح ما يعثر عليه فى كتبه من الزلل والوهم كما أذن له باستبدال لفظ بغيره مما لعله أنجى من المرهوب أو أنجع فى نيل المطلوب أو أجرى فى سنن الفصاحة على الأسلوب . وبعد عمر حافل بالعمل فى ديوانى الإنشاء بصفد والقاهرة تولى كتابة الدست بدمشق ثم كتابة السر بحلب .

وآخر منصبين تولاهما هما :

نظارة ديوان الإنشاء بالرحبة

ووكالة بيت المال مع كتابة الدست فى دمشق .

وفى آخر حياته تصدى للإفادة بالجامع الأموى فى دمشق ، وقد سمع منه فيه من أشياخه الذهبى وابن كثير والحسينى وغيرهم ، كما استمر قائما على عمله الرسمى فى دمشق إلى أن مات بها ليلة العاشر من شوال سنة ٧٦٤هـ غفر الله له ورحمه .

وانظر ترجمته فى صدر نصرة الثائر وفى النجوم الزاهرة ١٩/١١ والدرر الكامنة ٧٨/٢ ، والبدر الطالع ٢٤٣/١ وطبقات الشافعية للسبكى ٩٤/٦ وشذرات الذهب ٢٠١/٦ والوافى ٢٨٩/١ والبداية والنهاية ٣٠٣/١٤ ومفتاح السعادة ٢١٠/١ وكنوز الأجداد ٣٨٠ والأعلام ٣٦٤/٢ .

نقرأ فى مقدمته : – وبعد . فإن كتاب « المثل السائر » للصاحب ضياء الدين بن أثير الجزيرة – عامله الله بلطفه وسامحه بما هزت به نسمات الخيلاء غصن عطفه – من الكتب التى خفقت له فى الاشتهار عذبات أوراقه ، وسعى القلم على رأسه إذا سعى الخادم على ساقه إلا أن واضعه رحمه الله وإن جمع فيه بين العلم والعمل قد أذهب حسناته النادرة بتوالى سيئاته البادرة ، وأضاع تلك الزهرات الفذة فى قفار الدعاوى التى لا يجد فيها السالك لذة ونعم فإنه :

ما الجزع أهل أن تردد نظرة فيه وتثنى دونه الأعناق[1]

* * *

وبلغنى ما وضعه عز الدين بن أبى الحديد رحمه الله تعالى على الكتاب من المؤاخذة ، بعد أن استصرخت به تلك الظلامات عائذة . فلما وقفت على « الفلك الدائر » وجدته قد أغفل أثيرا ، وأخذ قليلا وترك كثيرا ، فأحببت بعد ذلك أن ألتقط ما غادره وأتتبع شاذه ونادره :

وعلىَّ أن أقضى صلاتى بعد ما فاتت إذا لم أقضها فى وقتها[2]

* * *

وقد جمعت ما عثرت عليه من هفوات ابن الأثير فى هذه الأوراق وضربت عليها هذا الفسطاط ومددت هذه الأوراق ، وسردتها على هذا الترتيب ، وسقتها على ذلك التبويب وسميت ذلك « نصرة الثائر على المثل السائر » .

واخترت هذه التسمية له شارة وإشارة : لأن الثائر لغة هو الذى لا يبقى على شىء حتى يدرك ثاره ، وإذا ناقشته فى بحث أورده ، ونافسته فى صالح أفسده ، لا أكاد أخلى ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن الذين عابهم ، وتردى إلى مواقف ذمهم وانتابهم ، خصوصاً القاضى الفاضل رحمه الله تعالى ، فإنه قد عارضه فى بعض ما أنشاه ، وعاب عليه ما دبجه ووشاه .

وقال السها للشمس أنت خفية وقال الدجى يا صبح لونك حائل

---

(١) نصرة الثائر ص ٤١ – ٤٢ .
(٢) نصرة الثائر ص ٤٤ .

ومن حسن الحظ أن يكون الصفدى من المؤمنين بأن الأول قد ترك للآخر أكثر مما جاء به[1]

فلولا هذا الإيمان من جانبه ما كان هذا الكتاب القيم .

— ١ —

لما كان الصفدى يؤمن بأن القواعد النحوية هى ميزان الألفاظ كما أن القواعد المنطقية هى ميزان المعانى ، فقد تتبع ابن الأثير بنقد لاذع فى موضعين من كتابه « نصرة الثائر » .

الموضع الأول :

قال ابن الأثير وقد ذكر النحو : إذا نظرنا إلى ضروبه وأقسامه وجدنا أكثرها غير محتاج إليه فى إفهام المعانى .

ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت (قوم) بإثبات الواو ولم تجزم لما اختل من فهم ذلك شىء .

وكذلك الشرط : لو قلت إن تقوم أقوم ولم تجزم لكان المعنى مفهوماً ، والفضلات كلها تجرى هذا المجرى كالحال والتمييز والاستثناء ، فإذا قلت « جاء زيد راكبٌ » و « ما فى السماء قدر راحة سحابٌ » و « قام القوم إلا زيدٌ » فلزمت السكون فى ذلك كله ، ولم تبين إعراباً لما توقف الفهم على نصب الراكب والسحاب ولا على نصب زيد .

وهكذا يقال فى المجرورات وفى المفعول فيه والمفعول له والمفعول معه ، وفى المبتدأ والخبر إلخ .

* * *

لكن قد خرج عن هذه الأمثلة ما لا يفهم إلا بقيود تقيده .

ولنضرب لذلك مثلا يوضحه فنقول : اعلم أن من أقسام الفاعل والمفعول ما لا يفهم إلا بعلامة كتقديم المفعول على الفاعل ، فإنه إذا لم يكن ثم علامة تبين أحدهما من الآخر

---

(١) نصرة الثائر ص ٥٠ — ٥١ .

أشكل الأمر كقولك (ضرب زيد عمرو) ، ويكون زيد هو المضروب فإنك إذا لم تنصب زيداً وترفع عمراً لا يفهم ما أردت[1] .

* * *

هذا كلام ابن الأثير .

وفحواه أن الإخلال بقواعد النحو فى الكلام لا يضر معناه ، ولا يعطل فهمه فى الأعم الأغلب .

* * *

وقد علق الصفدى عليه بقوله :

ما يورد مثل هذا إلاعوام الناس ومن لم يتلبس بالمعرفة ، ومن لم يرح رائحة العلم .

ألم يعلم أنه إذا صدر عن مترمل كتاب لم يجزم أفعال أمره ولا شروطه وأجوبتها ولم يرفع فاعله وينصب فضلاته ، ولا راعى شيئاً من قواعد إعرابه التى هى ظاهرة ، ولا حافظ على شىء من الإعراب ألبتة كان ذلك ضحكة للمغفلين فضلا عن العقلاء .

وحينئذ فقد استوى العلماء والجهال .

وقد كتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : أما بعد فتفقهوا فى السنة وتعلموا العربية .

وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يضرب ولده على اللحن .

وقال عبد الملك بن مروان : اللحن فى الكلام أقبح من آثار الجدرى فى الوجه .

ورأى أبو الأسود الدؤلى أعدالا للتجار مكتوبا عليها (لأبو فلان) فقال سبحان الله يلحنون ويربحون !! !

وذهب بعضهم إلى أن الله تعالى لا يقبل الدعاء إذا لم يكن معربا . ولا غرابة فى ذلك ، فقد قال الشيخ تقى الدين بن الصلاح : أخشى على من تعاطى الحديث ولم يدر النحو أن يدخل فى قوله ﷺ : من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار .

* * *

(١) المثل السائر جـ ١ ص ٤٤ – ٤٥

وإذا كان ابن الأثير قد استثنى بعض الأمور الغامضة وحتم معرفتها ، فإن الصفدى قد اعترض عليه بقوله :

ثم إنه استثنى من ذلك أشياء لا تعرف إلا بالإعراب .

فأقول : إنه لا يتوصل إلى معرفة الغامض إلا بعد معرفة الواضح ومن لم يعرف البين لم يعرف العويص ، لينتقل فى التفهم من الأدنى إلى الأعلى .

قال الخليل بن أحمد رحمه الله : لا يصل أحد من النحو إلى ما يحتاج إليه إلا بتعلم مالا يحتاج إليه . فقال أبو عمر الجرمى البصرى :

إن كان لا يوصل إلى ما يحتاج إليه إلا بما لا يحتاج إليه ، فقد صار ما لا يحتاج إليه محتاجاً إليه .

وكل علم بهذه المثابة فيه الجلى والغامض ، ولا يتوصل الإنسان إلى معرفة المسائل العويصة إلا بعد مقدمات يفهمها من المسائل الواضحة .[1]

* * *

ذلك كان الموضع الأول .

أما الموضع الثانى :

فقد سجل ابن الأثير على أبى نواس وأبى تمام وأبى الطيب أخطاء نحوية ، وكان متسامحا معهم ، فلم ينتقص منهم ولا عجب ؛ فاللحن من وجهة نظره الخاصة به لا يقدح فى حسن الكلام .

وقد تعقبه الصفدى فقال :

ما بقى بعد هذا إلا أن يقول : إن مراعاة الإعراب علة موجبة لقبح الكلام ، ألا تراه ما سمع بقولهم : النحو فى الكلام كالملح فى الطعام .

وقد ذهب بعضهم إلى أن الإعراب إنما سمى إعراباً لأن العُرب فى قوله تعالى « عربا أترابا » هن المتحبِّبات إلى أزواجهن ، فكأن من أعرب كلامه تحبَّب إلى مخاطبه .

---

(١) نصرة الثائر ص ٦٦ – ٦٧ .

أقول : معنى تحببه كونه ذكر أمارات تدل على معانيه .

فإنه إذا أراد التعجب قال : ما أحسنَ زيداً .

ولو ترك الإعراب وقال : ما أحسنْ زيدْ بسكون النون والدال لالتبس الفهم على المخاطب ، وبقى فى حيرة :

هل هو مستفهم أو متعجب أو مخبر .

فلما نصب النون والدال علم أنه يتعجب .

وإذا قال : ما أحسن زيد برفع النون وكسر الدال علم أنه يستفهم .

وإذا قال: ما أحسن زيد بنصب النون ورفع الدال علم أنه مخبر بنفى الإحسان عنه .

وإذا أراح المتكلم من يخاطبه من الفكرة والحيرة بالإعراب فقد تحبب إليه[1] .

* * *

انتهى كلام الصفدى .

* * *

ولهذه المسألة بشطريها وجهان وسؤالان .

الوجه الأول : وجه الصحة .

والوجه الثانى : وجه الحسن .

أما السؤالان فهما :

هل تخل مخالفة النحو بمعنى الكلام ؟ وهل يقدح اللحن فى حسنه ؟

ويمكن تركيب السؤالين على الوجهين هكذا .

هل تخل مخالفة قواعد النحو بصحة الكلام ؟

---

(١) نصرة الثائر ص ٦٨ .

وهل يقدح اللحن فى جماله ؟

* * *

أما ابن الأثير فقد أجاب على السؤالين بالنفى ، ولم يستثن إلا ما يترتب على الإخلال بالقواعد النحوية فيه إشكال .

وأما الصفدى فقد أجاب بالإيجاب .

وإذا كان لى أن أختار بين الرأيين .

فإننى أجدنى – ويا للعجب – ميالا إلى ابن الأثير .

ولا تندهش قارئى العزيز ، فابن الأثير لم يلغ النحو بجرة قلم .

وتعال نقرأ ما كتبه كاملا . قال :

أما علم النحو فإنه فى علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد فى تعليم الخط، وهو أول مايتبغى إتقان معرفته لكل واحد ينطق باللسان العربى ليأمن من معرة اللحن .

ومع هذا فإنه وإن احتيج إليه فى بعض الكلام دون بعض لضرورة الإفهام ، فإن الواضع لم يخص منه شيئا بالوضع بل جعل الوضع عاما ، وإلا فإذا نظرنا إلى ضروبه وأقسامه المدونة وجدنا أكثرها غير محتاج إليه فى إفهام المعانى .

ألا ترى أنك لو أمرت رجلا بالقيام فقلت له (قوم) بإثبات الواو ولم تجزم لما اختل من فهم ذلك شىء ؟[1] ..إلخ .

* * *

هذا ما قاله ابن الأثير عن الوجه الأول فى هذه المسألة وهو وجه الصحة .

فهل كلامه فاسد كما توهم الصفدى ؟

لا . لا .

كل ما هنالك أن الصفدى اكتفى من كلام ابن الأثير بمقدار ما اكتفى به من قرأ « ولا تقربوا الصلاة » وتوقف .

---

(١) المثل السائر ص ٤٤ .

وإلا فكلام ابن الأثير هو هو كلام السبكى فى عروس الأفراح حين قال :

إن الضرائر المتعلقة بحركة إعراب الكلمة ينبغى ألاينظر إليها المتكلم فى فصاحة الكلمة لأن الحركة زائدة على وضع الكلمة عند التركيب[1] .

* * *

وأما عن الوجه الآخر (وجه الحسن) .

فإن إيراد النص برمته يعطى البعد الحقيقى والنظرة الموضوعية للنظرية .

قال ابن الأثير بعد كلام له عن الخطأ :

على أنى لم أجد أحدا من الشعراء المفلقين سلم من مثل ذلك ، فإما أن يكون لحن لحنا يدل على جهله مواقع الإعراب .

وإما أن يكون أخطأ فى تصريف الكلمة .

* * *

ومع هذا فينبغى لك أن تعلم أن الجهل بالنحو لايقدح فى فصاحة ولا بلاغة ، ولكنه يقدح فى الجاهل به نفسه ، لأنه رسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فوجب اتباعهم .

والدليل على ذلك أن الشاعر لم ينظم شعره وغرضه منه رفع الفاعل ونصب المفعول أو ما جرى مجراهما ، وإنما غرضه إيراد المعنى الحسن فى اللفظ الحسن المتصفين بصفة البلاغة والفصاحة ولهذا **لم يكن اللحن قادحا فى حسن الكلام** ، لأنه إذا قيل :

« جاء زيد راكب » :

إن لم يكن حسنا إلا بأن يقال « جاء راكبا » بالنصب لكان النحو شرطا فى حسن الكلام ، وليس كذلك .

فتبين بهذا أنه ليس الغرض من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته وإنما الغرض أمر وراء ذلك .

---

(١) عروس الأفراح جـ ١ ص ٨٩ .

وهكذا يجرى الحكم فى الخطب والرسائل من الكلام المنثور[1] :

* * *

انتهى كلام ابن الأثير كاملا ، وهو كلام لا غبار عليه من أية جهة .

إنه كلام فى فلسفة النحو لا فى النحو .

وفى فلسفة البلاغة لا فى البلاغة .

والصفدى نفسه يقول فى نفس الموضوع .

« **وأنا فما أنكر أن لطف التركيب وسهولة الكلام أمر آخر وراء النحو**[2] .

* * *

ويبدو ابن خلدون متأثرا بل ومقتنعا بكلام ابن الأثير ، وهو يقرر أن لا مدخل للإعراب فى البلاغة ، لأن البلاغة إنما هى مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال سواء كان الرفع دالا على الفاعل ، والنصب دالا على المفعول أو العكس ، فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل اللغة ، فإذا عرف اصطلاح واشتهر صحت الدلالة وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك[3] .

* * *

هذا كلام ابن خلدون وهو محق فيه ، فالأدب فن لغوى أى أنه منبثق عن اللغة وجار على نهجها .

* * *

أما بعد : فلست نحويا ولكن ليس ما يمنع أن أكونه .

ومن قواعد النحو ما هو غير مفهوم بالمرة .

وأضرب مثلا لذلك : وجوب تذكير العدد مع المعدود المؤنث ، ووجوب تأنيثه مع المعدود المذكر .

---

(١) المثل السائر ص ٥٣ – ٥٦ .

(٢) نصرة الثائر ص ٦٩ .

(٣) المقدمة ص ١٢٦١ .

يجب أن تقول : فى القاعة خمس طالبات ، وخمسة طلاب .

فإذا قلت : خمسة طالبات وخمس طلاب كنت مخطئا لماذا بالله ؟
لست أدرى .
ودعونا نسأل :
أين قانون المطابقة بين أجزاء الجملة فى التذكير والتأنيث وفى الإفراد والتثنية والجمع ؟ !
يقول المحامى وهو يترافع بالعربية الفصحى :

نسخت ست محاضر ، وأرسلت ستة مذاكرات .
فنخطئه .
لماذا ؟ بالله لماذا ؟ !

وهل نحن متأكدون من أننا محقون فى تخطئته ؟

* * *

أنا لا أدعو إلى فوضى النحو بل إلى انضباطه .

ومرة ثانية دعونا نسأل :

ما حدود الصواب والخطأ فى الكلام ؟

لقد أجاب القدماء على هذا التساؤل حين وسعوا محيط الصحة إلى درجة لم نعد نرى معها شاطىء الخطأ .

حتى لقد قيل :
من اتسع فى كلام العرب ولغتها لم يكد يُلَحِّن أحدا .
وقيل : « أنحى الناس من لم يلحن أحدا » .
وقال الخليل بن أحمد : « لغة العرب أكبر من أن يلحن فيها متكلم » .
وروى الفراء أن الكسائى قال : على ما سمعت من كلام العرب ليس أحد يلحن إلا القليل »[1] .
والله الموفق .

---

(١) انظر لحن العامة والتطور اللغوى للدكتور رمضان عبد التواب ص ٢٣٣ .

obeikandl.com

— ٢ —

ترددت كثيراً فى إثبات هذا المثال وإيراده ، لا لأنه ليس من نقد النقد ، بل لأنه يدل على أن الصفدى وقبله ابن أبى الحديد كانا يتربصان بابن الأثير الدوائر ، ويتصيدان له ماعساه أن يكون موضع مؤاخذة ، ولو كان أبعد ما يكون عن ذلك .

فالفصل التاسع من المثل السائر فى أركان الكتابة وهى خمسة عالجها ابن الأثير فى خمس صفحات .

وهذا إلمام سريع بها :

الركن الأول : أن يكون مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة فإن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع .

أو يكون مبنياً على مقصد الكاتب .

وهذا الركن يشترك فيه الكاتب والشاعر .

الركن الثانى : أن يكون الدعاء المودع فى صدر الكتاب مشتقاً من المعنى الذى بنى عليه الكتاب .

الركن الثالث : أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة لتكون رقاب المعانى آخذة بعضها ببعض .

الركن الرابع : أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال بل تكون مسبوكة سبكاً غريباً ، يظن السامع أنها غير ما فى أيدى الناس وهى مما فى أيديهم .

الركن الخامس : ألايخلو الكتاب من معنى من معانى القرآن الكريم والأخبار النبوية ، فإنهما معدن الفصاحة والبلاغة[1] .

* * *

هذا ماقرره ابن الأثير ، وهو ماينبغى بل مايجب أن يكون موضع تقدير .

لكن الصفدى سامحه الله لم يغفر له قوله عن الركن الأول .

---

(١) المثل السائر ص ١٢١ — ١٢٥ جـ ١ .

« وهذا الركن يشترك فيه الكاتب والشاعر »

ومن هنا جاء تعقيبه الآتى :

هذا فيه تسامح ، فإن الشاعر فى كل وقت ما يفتتح قصيدته بما يدل على مقصوده ، فإن من مدح يطلب الإرفاد والإعانة بمال أو مركوب أو شفاعة أو طلب ولاية ، ثم صدر تلك القصيدة بغزل يصف فيه محبوبه أو وصف هوى أو غربة أو شوق أو مسير ، كيف يتأتى له ذلك ؟

نعم إذا كان مدحا مجرداً بلا غزل لاق به ذلك .

وأكثر مايكون المدح مجرداً من الغزل إذا كان فى واقعة تجددت للممدوح فيهنئه الشاعر بولاية منصب أو بظفر بعدو أو بمولود أو بسلامة من حادثة ، أو غير ذلك من مجدات الوقائع .

وأماالكاتب فإنه إن كتب إلى من هو دونه أو مساويه أو أرفع منه بحيث أنه تمكن مخاطبته بالدعاء ، فيحتاج إلى أن يكون الدعاء مناسباً لما يتضمنه الكتاب من شوق أو وحشة أو هدية أو استهداء أو شفاعة أو شكر أو هناء أو عزاء أو ما هو بحسب الحال .

* * *

وهذا النوع إنما حافظ عليه المتأخرون من الكتاب خصوصاً فى التقاليد والتواقيع فإنهم راعوا ذلك .

على أن هذا لايحتاج أهل هذا العصر إلى التنبيه عليه لأنه قد اشتهر بين كتابه . وقد بقى هو الغاية المطلوبة من الكتاب[1] .

* * *

انتهى التعقيب ، وتعنت الصفدى فيه واضح .

فابن الأثير لم يقل بلزوم ذلك ولم يوجبه فى كل الكتب ولا فى جميع القصائد .

وعلى فرض أنه أوجبه . فماذا فى ذلك ؟ !!

---

(١) نصرة الثائر ص ٨٧ - ٨٨ .

هل من يرفض أن يكون مطلع الرسالة أو مطلع القصيدة موصوفا بالجدة والرشاقة ؟ !!

وأليس من براعة الاستهلال بعد حسن الابتداء فى القصائد والرسائل أن يكون أول الكلام مشعرا بغرض القائل ؟

إننى أسوق هذا المثال مكتفيا به عن عشرات الأمثلة الواردة فى نصرة الثائر .

* * *

« ونحن نأخذ بتلابيب الصفدى لقوله :

« وهذا النوع لا يحتاج أهل هذا العصر إلى التنبيه عليه لأنه قد اشتهر بين كتابه ، وقد بقى هو الغاية المطلوبة من الكاتب » .

* * *

هو الغاية المطلوبة من الكاتب إذن .

فما بالكم إذا ذكركم ابن الأثير به أنشبتم فيه أظفاركم بحجة أنه لا داعى إلى ذلك ؟ !!

ولو شئت لقلت :
إن ابن الأثير لم يفض فيه بأكثر مما فعل الصفدى ، فهو فى المثل السائر ثلاثة أسطر .
وفى نصرة الثائر سبعة وثلاثون سطرا .
أى بنسبة ١ إلى ١٢ وأكثر .

* * *

— ٣ —

وإذا كان المثال السابق نموذجاً للاختلاف فى الجزئيات ، فإن هذا المثال نموذج للاختلاف فى التطبيق .

أى أن الأصل النظرى متفق عليه .

* * *

يمثل ابن الأثير لأية نظرية بأمثلة كثيرة ، فيأتى الصفدى إلى واحد من هذه الأمثلة ويعترض عليه .

فالمقالة الأولى عن الصناعة اللفظية .

وهى تنقسم قسمين :

القسم الأول فى اللفظة المفردة .

واللفظة المفردة هذه تستغرق فى المثل السائر من ص ٢١٠ إلى ص ٢٦٩ . وقد أتى ابن الأثير فى هذه الصفحات بكل غريب وعجيب من الكلام النظرى ، والتطبيق عليه بالتمثيل له .

* * *

ونلتقط من هنا وهناك وهنالك ما يأتى ، قال :

واعلم أن تفاوت التفاضل يقع فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها ؛ لأن التركيب أعسر وأشق .

ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم – من حيث انفرادها – قد استعملتها العرب ومن بعدهم ، ومع هذا فإنه يفوق جميع كلامهم ، ويعلو عليه وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب .

وسأضرب مثالا يشهد بصحة ما ذكرته وهو أنه قد جاءت لفظة واحدة فى آية من القرآن وبيت من الشعر فجاءت فى القرآن جزلة متينة ، وفى الشعر ركيكة ضعيفة ...

أثر التركيب فيها هذين الوصفين الضدين ...

أما الآية فهى قوله تعالى : ﴿فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منك والله لا يستحى من الحق﴾ .

وأما بيت الشعر فهو قول المتنبى :

تلذ له المروءة وهى **تؤذى** ومن يعشق يلذ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعانى الشريفة ، إلا أن لفظة (تؤذى) فيه قد حطت من قدره لانقطاعها .

ألا ترى أنه قال :

تلذ له المروءة وهى تؤذى

ثم قال :

ومن يعشق يلذ له الغرام

فجاء بكلام مستأنف .

وهى إذا جاءت فى الكلام فينبغى أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقة به ، كقوله تعالى : « إن ذلكم كان يؤذى النبى » .

أو متصلة بما قبلها غير منفصلة عنه ، كما جاء فى الرقوة :

« باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك » .

* * *

وكذلك ورد فى القرآن الكريم : « إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة » .

فلفظة (لى) أيضاً مثل لفظة (تؤذى) وقد جاءت فى الآية مندرجة متعلقه بما بعدها .

وإذا جاءت منقطعة لا تجىء لائقة كقول أبى الطيب أيضاً :

تُمسى الأمانىُّ صرعى دون مبلغه فما يقول لشىء ليت ذلك لى .[1]

* * *

أومأ الصفدى إلى هذا الكلام لابن الأثير ، ثم علق عليه بقوله :

أى شىء أنكره من هذه اللفظة ؟ وليس الذى ذكره غير دعوى مجردة ، وهذه اللفظة (لى) قد وقعت متمكنة ، والقافية إذا جاءت متمكنة فإنها من حسن التركيب وعذوبة الانسجام .

أما لفظة (تؤذى) فى قوله :

تلذ له المروءة وهى تؤذى

---

(١) المثل السائر جـ ١ ص ١١٣ - ١١٧ .

فإنها جاءت ركيكة بخلاف (لى) فى البيت المذكور ، ولا تعاب هذه فى هذا البيت إلا أن تعاب لفظة (بى) فى قوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

وما رأيت من عاب هذا البيت وهذه القافية ، وإنما هو معدود فى المحاسن التى انفرد بها أبو الطيب لما فيه من مقابلة خمسة بخمسة ولم يتفق هذا العدد لغيره .

وكذا لفظة (تؤذى) التى عابها ، لو وقعت قافية متمكنة لم تعب[1] .

* * *

هذا الخلاف محصور فى كلمة (لى) فى بيت المتنبى .

فإنها غير رائقة فى نظر ابن الأثير ، ورائقة فى نظر الصفدى فليكن .

كل واحد منهما وذوقه ، ولا غرابة فى ذلك ، فالذوق عامل حاسم فى الموقف النقدى .

ولا اختلاف فى كلمة (تؤذى) فى بيت المتنبى ، فقد اتفق الناقدان على ركاكتها ، لانقطاعها واستئناف كلام بعدها غير متصل بها ، عند ابن الأثير . وبدون تعليل عند الصفدى .

لكن العجب فى قول الصفدى « وكذا لفظة (تؤذى) التى عابها لو وقعت قافية متمكنة لم تعب .

وسر العجب ان ابن الأثير لم يقل سوى ذلك بدليل أنه تمثل بها حسنة رائقةً فى الآية والحديث .

— ٤ —

تحت عنوان « اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها » قال ابن الأثير :

أما اختلاف صيغ الألفاظ ، فإنها إذا نقلت من هيئة إلى هيئة ، كنقلها من وزن من الأوزان إلى وزن آخر ، وإن كانت اللفظة واحدة ، قُبْحهَا صار حسنا ، وحسنها صار قبحاً .

---

(١) نصرة الثائر ص ١٣ .

فمن ذلك لفظة (خَودْ) فإنها عبارة عن المرأة الناعمة ، وإذا نقلت إلى صيغة الفعل قيل (خوَّد) بتشديد العين على وزن فعل . ومعناها أسرع .

فهى على صيغة الاسم حسنة رائقة ، وقد وردت فى النظم والنثر كثيراً .

وإذا كانت على صيغة الفعل لم تكن حسنة كقول أبى تمام :

وإلى بنى عبد الكريم تـواهقتْ رُتك النعام رأى الظلام فخوّدا[1]

* * *

لكن إذا نقلت من الحقيقة إلى المجاز خف عنها القبح قليلا .

كقول بعض شعراء الحماسة :

أقـول لنفسى حين خـود رأتها ... رويدك لما تشفقى حين مشفَق[2]

* * *

أورد الصفدى هذا الكلام بمعناه لا بنصه ، وعقب عليه بقوله :

ما أكثر تحكم هذا الرجل ودعاويه بلا مستند ، وإن كان ، فهو أوهن من بيت أسس على شفا جرف هار .

وذلك أنه من أول الكتاب إلى آخره يستدل على أن عذوبة اللفظة وحسنها أمر يُرجع إلى تركيب أحرفها ولذة موقعها فى السمع وأن ذلك أمر يشهد له الحس .

---

(١) تواهقت : مدت أعناقها وتسابقت .
الرتك : سرعة فى مقاربة خطو .
خود : اهتز من النشاط . أما خود – بفتح الخاء وسكون الواو – فهى المرأة الجميلة الشابة وجمعها خود بضم الخاء .

(٢) الرأل : فرخ النعام .
يقال للمذعور والمرتاع خود رأله وهو مثل وقوله : لما تشفقى حين مشفق . أى لم تخافى وقت مخافة والمعنى العام للبيت : ليس هذا وقت الخوف بل وقت الصبر فاصبرى .
وانظر المثل السائر جـ ١ ص ٣٨٠ – ٣٨١ .

فيقال له : إذا كان الأمر كذلك فلا اعتبار هنا بالمعنى ، ولو أن المعنى يؤثر فى اللفظ عذوبة لكانت (هِرْكَوْلَة) للمرأة المرتجة الأطراف والأرداف عذبة . ولو أثر المعنى فى اللفظ ركة لكانت لفظة (سعير) ثقيلة فى السمع .

ولما لم تكن العذوبة والثقالة يتعلقان بالمعنى ، علمنا أن المعنى لا عبرة به فى الفصاحة .

فحينئذ قوله : إن خَوَّد فى الأول ثقيل لأنه حقيقة ، وفى الثانى حسن لكونه مجازاً ، دعوى مجردة ، لأن الخاء والواو المشددة والدال لم يتغير لها صيغة ولا بناء فى الموضعين .

والمجاز والحقيقة أمران معنويان لا علاقة لهما باللفظ .

* * *

ويقال له: أنت قلت: «إن الذى تكلفه النحاة من التعليلات واه لا يثبت على محك النظر».

أفهذا التعليل الذى أوردته قوى ثابت على محك النظر ، ليس فيه مغمز ولا قدح ؟ !!

أهذا طعـــن من يشفى غليـلا وإقدام امرىء عاب الرجالا؟![1]

* * *

انتهى نقد الصفدى لابن الأثير .

وإذا كان لى رأى أبديه فإننى :

أولا : أقر ابن الأثير على أن (خوْد) (الاسم) أعذب من (خوَّد) (الفعل) ، وعلى أن وقعها على السمع لهذا أحسن ، وقد جاءت فى قصيدة النيل من شعر أمير الشعراء شوقى ، وتشدو بها سيدة الغناء العربى أم كلثوم .

ثانيا : أوافق ابن الأثير على أن (خوَّد) فى البيت الثانى أوقع نسبياً من (فخودا) فى البيت الأول .

أى أننى أخالف الصفدى فى أن وقع الكلمتين على السمع واحد . لكنى أخالف ابن الأثير فى أن سبب ثقلها فى البيت الأول ، وخفتها فى البيت الثانى إنما يرجع إلى أنها فى البيت الأول حقيقة ، وفى الثانى مجاز .

---

(١) نصرة الثائر ص ١٦٢ .

وأذهب إلى أن السبب فى اختلاف وقعها على آذاننا إنما هو شىء كالذى قيل فى كلمة (تؤذنُ) فى الفقرة السابقة .

فى البيت الأول جاءت كلمة (فخودا) قافية ، أى نهاية لوحدة كلامية مستقلة . وبعبارة أخرى : لم يعقبها ما يسهلها باندماجها فيه .

أما فى البيت الثانى فأدمجت فى سياقها إلى درجة أننا لم نعد نحسّ بها .

فى البيت الأول حصل ما يسمى فى المصلح الموسيقى بتنافر الأصوات **Dissonent** وهو غير المعروف بتنافر الحروف فى الكلمة والممثل له بالهخع والظش والنقاخ ومستشزرات .. الخ .

* * *

أما (خود) فى البيت الثانى فحصل لها فى نطاق سياقها وربما بفضل هذا السياق ما يمكن أن يسمى امتزاج الأصوات **Consonent**[1] .

* * *

والفرق ظاهر وملموس بين (فخودا) و (خود)

فالأولى فيها من السوابق الفاء وهى صوت شفوى بعده الخاء وهى صوت حلقى .

ومن اللواحق الألف تلك الفتحة الطويلة .

والفتحة الطويلة صوت رخو لا يعترضه أثناء النطق به أى عائق ، لكنه هنا قد جاء بعد الدال وهى صوت انفجارى مجهور من الأصوات التى تسمى الوقفات .

* * *

أما الثانية وهى (خود) فقد جاءت فعلا مجرداً من السوابق واللواحق قبله الظرف العذب (حين) .

وبعده الكلمة الشعرية (رأل) وهى هنا فاعله أى الجزء المتمم فى المعنى له .

* * *

(١) الموسوعة التيمورية ص ٢٢٧ .

إلى شيء من هذا أو قريب منه يرجع الارتياح النسبى إلى كلمة (خود) فى البيت الثانى ، وعدم الارتياح النسبى أيضا إلى كلمة (فخودا) فى البيت الأول .

لكنه لا يرجع بالقطع إلى أن الكلمة مستعملة فى البيت الأول استعمالاً حقيقيا ، وفى البيت الثانى استعمالا مجازياً ، كما قال ابن الأثير ، وعارضه الصفدى محقا فى هذه المعارضة .

— ٥ —

أبدأ هذه الفقرة بسؤال هو :

من أين يستمد الأديب أفكاره ؟

وأجيب : يستمد الأديب أفكاره :

من الحياة .

ومن قراءاته المنوعة .

وأخيراً من استبطان الأمور والأشياء ؛ وتفجيرها بالطاقات الخلاقة المبدعة .

* * *

هذا السؤال وجوابه حاضران فى ذهنى دائماً .

ولا أعرف إن كانا من كسبى الخاص بى .

أم من قراءاتى التى نسيتها حتى ترسبت فى الذاكرة ، واستقرت فى العمق العميق للعقل الباطن .

واحتمال ثالث : هو أننى تواردت فيهما مع غيرى دون أن أدرى .

* * *

وليس هذا هو المهم .

بل المهم أننى عشت ذلك السؤال وجوابه مع ابن الأثير وصلاح الدين الصفدى ، وأنا أقرأ موضوع « الصناعة المعنوية » فى المثل السائر وفى نصرة الثائر .

فقد قال ابن الأثير فى المقالة الثانية تحت العنوان السابق (الصناعة المعنوية) بعد أن ذكر حكم اليونان وعلومهم :

إن أبا نواس ومسلم بن الوليد وأبا تمام والبحترى والمتنبى فى الشعراء .

وعبد الحميد وابن العميد والصابى فى الكتاب .

لم يتعلموا من كتب اليونان شيئاً ، وقد جاءوا بما جاءوا به .

أو وقد أبدعوا وابتكروا[1] .

وبغروره المعهود فيه ومنه ضرب لنا المثل بنفسه .

فهو لم يراع ذلك ، ومع هذا فقد جاء بما لم تستطعه الأوائل .

* * *

وكالعادة لم يغفرها الصفدى له ، فقد تعقبه بقوله :

ما المشاحة هنا إلا فى حكمه أن هؤلاء ما اشتغلوا بشىء من ذلك .

فأقول له : من أين علمت هذا حتى تحكم به ؟ !

أما دعواك لنفسك فما أعارضك فيها ؛ لأن الناس أخبر بنفوسهم .

وأما أبو نواس ، فقد قيل : إنه كان يشتغل بالفقه حتى قيل فيه . — أبو نواس فقيه غلب عليه الشعر ، والشافعى شاعر غلب عليه الفقه ؛ ومع ذلك فلم يظهر عنه (أبى نواس) فقه ، كما لم يظهر عنه اشتغال بعلوم اليونان .

وعدم الدليل لا يدل على عدم المدلول .

على أنه كان فى زمن الرشيد والأمين والمأمون ، وهذه العلوم اشتهرت فى أيامهم خصوصاً فى زمن المأمون ، فإنه رتب الذهب لمن يحل كتب اليونان من اليونانية إلى العربية مثل حنين بن إسحق وابن بختيشوع وغيرهما[2] .

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ص ٤ .

(٢) حنين ابن إسحق العبادى .

طبيب مؤرخ مترجم متمكن من عدة لغات ت سنة ٢٦٠هـ .

أما ابن بختيشوع فاسمه بختيشوع بن جبرائيل بن بختيشوع كان طبيبا مقربا لدى الخلفاء وبخاصة المتوكل ت سنة ٢٥٦هـ .

(وانظر وفيات الأعيان ١٦٧/١ وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٢٠١) .

ألا ترى أبا نواس قال :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

وإن قوله :

أبـاح العـراقى النبيـذ وشربـه وقال حرامان : المدامة والسكر

وقـال الحجازى الشرابان واحـد فحلت لنا من بين قوليهما الخمر

سآخـذ من قوليهمـا طرفيهمـا وأشربهـا لافـارق الـوازر الوزر

نقول : إن هذا الشعر له يدل على أنه كان منطقيا ؛ فإن استنتاجه حِلَّ الخمر من مقدمتى كلام الفقيه العراقى والفقيه الحجازى يدل على ذلك وهذا على عادة مجان الشعر ، وإلا فالخمر محرمة قطعا .

وأما أبو الطيب فقد قال :

أنا وأبو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحترى .

وكلام هذين الشاعرين يدل على أنهما ما عريا عن شىء من علوم الفلسفة خصوصاً المتنبى .

والحاتمية تدل على أنه كان ينظر فى كلام القوم .

ألا ترى قوله يمدح ابن العميد :

من مبلـغ الأعـراب أنى بعدهـا جالست رسطاليس والإسكندرا

وسمعت بطليموس دارس كتب متبديـا متملـكا متحضـرا

وهذا بعيد أن يصدر ممن لم ينظر فى كتب القوم .

وقال المعرى ، وقد أورد لأبى الطيب قوله :

إلف هذا الهواء أوقع فى الأنـ ـفس أن الحمام مـر المذاق

والأسى قبل فرقة الروح عجز والأسى لايكون بعد الفراق

هذان البيتان يفضلان كتاباً من كتب اليونان لتناهيهما فى الصدق وحسن النظر ، ولو لم يكن له سواهما لكفاه شرفا .

* * *

وأما ابن العميد .

فقد قال ابن خلكان رحمه الله تعالى فى ترجمته :

كان متوسعاً فى علوم الفلسفة والنجوم .

والبيتان الرائيان المذكوران لأبى الطيب فى مدحه يؤيدان ما قاله ابن خلكان[1] .

* * *

هذا الذى ذكرناه يؤيد ما سبق أن قلناه من أن الشاعر أو الأديب أو الإنسان بصفة عامة يستمد أفكاره من قراءاته المنوعه .

* * *

أما التمرس بالحياة .

فهذا ما جرى فيه النقاش بين ابن الأثير والصفدى .

يقول الأول – ومما يعين على استخراج المعانى شاهد الحال[2] .

فيرد الثانى عليه قائلا – ما أنكر أن مشاهدة الحال فى الخارج تعين على تصور المعانى ، إلا أن استنباط المعانى لا يفتقر فيه إلى المشاهدة وقد جاء إلى الوجود جماعة من العميان الذين لم يشاهدوا الصور فى الخارج وأتوا بالتشبيهات البديعة مثل بشار بن برد حيث قال :

كأن مثار فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومثل أبى العلاء المعرى حيث يقول :

ليلتى هذه عروس من الز نج عليها قلائد من جمان

وسهيل كوجنة الحب فى اللو ن وقلب المحب فى الخفقان

ثم شاب الدجى وخاف من الهجـ ـر فغطى المشيب بالزعفران

وما أحلى قول أبى طاهر حيدر (ت ٥١٧هـ) .

---

(١) نصرة الثائر ص ١٨٣ – ١٨٦ .

(٢) المثل السائر جـ ٢ ص ٨ .

وضاحية وردت بهـا غديرا يقدر من صفاء الماء أرضا

كأن الوحش حيث تغب فيه يقبل بعضها للشوق بعضا

وغير هؤلاء ممن أتوا بالغرائب ولم يستعينوا بحاسة البصر .

* * *

فإن قلت : إن هؤلاء إن كانوا ما رأوا ولا شاهدوا ، فقد سمعوا ما قاله غيرهم ، وشبهوا كما شبه غيرهم .

قلت : ما نازعتك فى ذلك ، وإنما أردت أن التشبيه لا يفتقر إلى الصورة الخارجية ، فإن الناظم قد يتصور المعنى فى ذهنه من غير أن يشاهده فى الخارج ويولد المعنى من معنى آخر كقول ابن المعتز :

وأرى الثريا فى السماء كأنها قدم تبدت من ثياب حداد .

فإنه ولد هذا المعنى من قول الآخر :

كأن كؤوس الشرب والليل مظلم وجوه عذارى فى ملاحف سود

أو يعكس المعنى إلى ضده ، وهو فى التشبيه كثير ، لأن التشبيه واقع بين طرفين مشبه ومشبه به .

فإذا شبهت النجوم بالشرار ، جاز أن تشبه الشرار بالنجوم ، وإذا شبهت البرق بالسيف ، جاز ان تشبه السيف بالبرق ، وإذا شبهت الهلال بالقلامة جاز أن تشبه القلامة بالهلال . قال ابن المعتز :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة إذ قدت من الظفر

وعكس ذلك سعد الدين بن عربى فقال فى مليح قلم أظفاره :

أبعدت ظفرك وهو بعضك فالذى يهواك أجدر بالبعاد الأطول

فأجابنى : أتظننى قلمتها عن حاجة. لابل لمعنى عن لى

لأريك يامن بالهلال يقيسنى أن الهلال قلامة من أنملى

ومثل هذا يسمى غلبة الفرع على الأصل ، كما إذا شبهت العرجون بالهلال والغصن بالقد ، والنرجس بالعيون ، والليل بالشعر ، والصبح بالثغر وهو مشهور[1] .

* * *

انتهى كلام الصفدى .

ونرى أنه قد عالج فيه وبه مصدرين من مصادر الإلهام .

هما القراءة وممارسة الحياة ، أو ما سماه ابن الأثير « شاهد الحال » .

ولو أن شاهد الحال هذا قد فهم من الناقدين على أنه رؤية الحياة بالعين ، والنظر إليها بحاسة البصر .

* * *

أما نحن فقد فهمناه على أنه العيش فيها ، والتأثر بها ، والتفاعل معها ، ولو كان من يزاول ذلك أعمى وأصم وأبكم .

* * *

المهم ألا يعيش فى برجه العاجى منزويا عن الحياة والمجتمع ومخاصما الطبيعة والناس .

* * *

— ٦ —

تدار علينا الراح فى عسجدية ... حبتها بألوان التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها ... مها تدريها بالقسى الفوارس

(١) نصرة الثائر ص ١٨٧ — ١٩٢

فللخمر مازرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس[1]

هذا الشعر لأبى نواس فى وصف الكأس .

وقد علق ابن الأثير عليه بقوله : أكثر العلماء من وصف هذه الأبيات وهذا المعنى ، وقولهم فيه : إنه معنى مبتدع .

ويحكى عن الجاحظ أنه قال : مازال الشعراء يتناقلون المعانى قديما وحديثا ، إلا هذا المعنى ، فإن أبا نواس انفرد بإبداعه .

وما أعلم أنا ما أقول لهؤلاء سوى أن أقول :

قد تجاوزتم حد الإكثار ، ومن الأمثال السائرة :

« بدون هذا يباع الحمار »[2]

* * *

وفصاحة هذا الشعر عندى هى الموصوفه لا هذا المعنى ، فإنه لاكبير كلفة فيه ، لأن أبا نواس رأى كأسا من الذهب ذات تصاوير فحكاها فى شعره .

* * *

---

(١) الراح : الخمر : والعسجدية نسبة إلى العسجد وهو الذهب حياه : أعطاه ومنحه .
فارس : الأمة الفارسية .
قرارتها : أسفلها .
المها : جمع مهاة وهى البقرة الوحشية يضرب بها المثل فى حسن العيون .
ادرى الصيد : ختله
القسى : جمع قوس .
الجيب : طوق الثوب
القلانس : جمع قلنسوة وهى غطاء الرأس .
والمعنى . إن الكأس مملاة من أسفلها بصورة كسرى .
أما جوانبها فمحلاة بصور فرسان يتحينون غفلة المها ليرموها بسهامهم .
ولقد كانوا يصبون الخمر فى تلك الكأس حتى تحاذى أطواق صورالفوارس ثم يمزجونها بالماء حتى تحاذى رءوسهم .

(٢) أصل هذا المثل أن رجلا أراد أن يشترى حمارا من آخر يدعى أبا يسار .
فجعل أبو يسار يشيد بحماره ويبالغ فى وصفه حتى قال : تصيد به النعام معقولا .
فقال الشارى : شاكه أبا يسار . بدون هذا يباع الحمار ، وشاكه : معناها قارب أى لا تغل .

والذى عندى فى هذا أنه من المعانى المشاهدة .

فإن هذه الخمر لم تحمل إلاماء يسيراً ، وكانت تستغرق صور هذا الكأس إلى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلا بقدر القلانس التى على رؤوسها .

وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر[1] .

* * *

يذكر الصفدى ذلك ليعلق عليه قائلا :

كفى بهذا الرجل رحمه الله أن يقول مثل هذا ، ومأأعرف كتاباً من أمهات كتب الأدب مثل الروضة للمبرد والذخيرة لابن بسام ، وزهر الآداب للحصرى إلا وقد تضمن ذكر هذه الأبيات ، والثناء عليها[2] .

* * *

وحسبك بكلام يثنى عليه أبو عثمان عمرو الجاحظ وهو من أحذق أئمة الأدب وأعرفهم بما يقول ، وأبصرهم بمدارك العقول .

وكلامه فى هذا حجة ، وما قرره فى الأبيات هو المحجة[3] .

* * *

هذه القضية خليق بها أن تسمى قضية المسلمات فى الأدب العربى وما أحوجها إلى رجل مثل ابن الأثير عنده من الذاتية وقوة الشخصية ما يسمح له بأن ينظر إليها نظرة موضوعية ، ويقول فيها رأيه دون نظر إلى رأى آخر سبقه .

* * *

وإذا كان لى أن أختار بين موقفى ابن الأثير والصفدى .

فإننى أختار موقف ابن الأثير ؛ لأنه رأى مدروس معلل وابن الأثير فيه ذو شخصية .

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ص ١٣ وما بعدها .

(٢) أضيف « الوساطة » للجرجانى .

ومعظم النقاد العرب يمثلون للمعنى المخترع المبتدع بهذه الأبيات لأبى نواس ، وبالشعر الذى قاله المتنبى فى وصف الحمى .

(٣) نصرة الثائر ص ١٩٤ .

أما الصفدى فلم يزد على أن قال :

إنك يا ابن الأثير كسرت إجماع من قبلك على استحسانهم هذا الشعر ،

وليس من المؤكد أن هذا الكلام على ابن الأثير ، فقد يكون له وإنى لصادق التعبير عن نفسى حين أقول :

إننى قد أخذته هذا المأخذ .

والخلفية الفكرية لموقفى هى إيمانى المطلق بأن الخير كل الخير فى أن يعلو الإنسان بنفسه من الفردية إلى الشخصية ، لأن الفردية عدد أما الشخصية فقيمة .

ولقد كان الصفدى هنا فرداً ممعناً فى الفردية .

— ٧ —

بأبى غـــزال غازلتـــه مقلـتى ... بين العذيب وبين شطى بـــارق

وسألت منه زيارة تشفى الجوى ... فأجابنى منهـا بوعـــد صـــادق

بتنا ونحـــن من الدجى فى خيمـــة ... ومن النجوم الزهر تحت سرادق

عاطيته والليـــل يسحب ذيلـــه ... صهباء كالمســـك الفتيق لناشق

وضممتـــه ضـــم الكمى لسيفه ... وذؤابتـــاه حمائل فى عـــاتقى

حتى إذا مـــالت به سنة الكـــرى ... زحزحتـــه شيئا وكان معـانقى

أبعدتـــه عـــن أضلـــع تشتاقـــه ... كيلا ينـــام على وســـاد خافق

* * *

أورد ابن الأثير الأبيات السابقة فى محاسن المعانى ، وأثبت فى إثرها ما يدل على إعجابه بها قال :

وهذا من الحسن والملاحة بالمكان الأقصى ، ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصاً .

والبيت الأخير هو الموصوف بالإبداع ، وبه وبأمثاله أقرت الأبصار بفضل الأسماع[1] .

* * *

أما الصفدى فقد حكى ذلك وقال :

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ص ٣٠ .

هذه الأبيات لابن بقى ، أوردها ابن الأبار فى « تحفة القادم » ثم قال (ابن الأبار) : وقد نسب بعض أهل عصرنا ابن بقى إلى الجفاء فى قوله :

أبعدته عن أضلع تشتافه .

ولو قال : (أبعدت عنه أضلعا تشتاقه) لكان أحسن .

* * *

ثم أورد بعد ذلك لأبى الحكم جعفر بن يحيى بن عتال الدانى :

حبك لذّ بكل معنى ... إلى كرى ملت أوسهاد

إن كان لابدَّ من رقاد ... فأضلعى هاك عن وساد

ونم على خفقها هدوًّا ... كالطفل فى نهنه المهاد

يقول الصفدى :

ولما وقفت على ما ذكره ابن الأبار من الإيراد على ابن بقى وأبيات ابن العتال ، خطر لى أن يكون ذلك نظما فنظمت ذلك على روى ابن بقى ووزنه :

أبعدته من بعد ما زحزحته ... ما أنت عند ذوى الغرام بعاشق

هذا يدل لناس منك على الجفا ... إذ ليس هذا فعل صب وامق

إن شئت قل أبعدت عنه أضالعى ... ليكون فعل المستهام الصادق

أو قل فبات على اضطراب جوانحى ... كالطفل مضطجعا بمهد خافق

فانظر إلى ما استحسنه ابن الأثير ومدحه وفضله كيف أورد الناس عليه وعابوه .

ولعمرى إنه نقد حسن ومأخذ دقيق وإيراد متوجه[1] .

* * *

وعندما نضع استحسان ابن الأثير فى الميزان نجده يرجح عدم الاستحسان لدى الصفدى .

---

(١) نصرة الثائر ص ٢١٨ - ٢١٩ .

ففيه من الإيثار أكثر مما فيه من الأنانية ، وفيه من الود أكثر مما فيه من الجفوة . وإذا كانت الكلمة (أبعدته) غليظة جاسية ، فإنها جاءت مسبوقة بـ (زحزحته شيئا) .

وفى الفعل (زحزح) من الرقة واللطف والتدرج ما فيه .

— ٨ —

وكأنهـــا وكأن حامـــل كأســـها إذ قـــام يجلوها على الندمـــاء

شمس الضحى رقصت فنقط وجهها بـدر الدجى بكواكب الجـــوزاء

هذان البيتان للوأواء الدمشقى .

وقد ذهب ابن الأثير إلى أنه فيهما قد شبه الساقى بالبدر ، وشبه الخمر بالشمس ، وشبه الحبب الذى فوقها بالكواكب[1]

* * *

ومع أنه محق فيما ذهب إليه ، إلا أن الصفدى قد شنع عليه دون وجه حق . قال :

قد ادعى أنه شبه ثلاثة بثلاثة ، وهو لم يشبه الساقى ، ولا فى البيتين ما يدل على تشبيهه .

على أن الشاعر توهم أنه شبه الساقى ولم يذكره .

وقلده ابن الأثير رحمه الله فى وهمه .

ومعناهما أن الخمر فى حبيها كأنها شمس رقصت فنقطها البدر بالكواكب وكنى برقصها عن اضطرابها وقت المزج .

وحسن ذكر البدر هاهنا لأنه يصاحب الكواكب ، وهو أكبرها فى رأى العين .

وقد ذكر على سبيل الاستطراد :

لما ذكر النقوط ، أراد أن يسند فعله إلى فاعل صدر عنه ، فحسن أن يذكر البدر ، ولو حذف من الكلام تم المعنى فى الأصل ، كأنْ يُقال : كأنَّ الخمر شمس رقصت فنقطت بالكواكب .

---

(١) المثل السائر ص ١٣١ جـ ٢ .

والشاعر أثبت أداة التشبيه للساقى فى قوله :

كأنها وكأن حامل كأسها .

ولم يأت له بمشبه به .

فالشاعر واهم .

وابن الأثير مقلد .

وكلاهما اغتر بذكر البدر ، لأن العادة قد جرت بتشبيه الساقى بالبدر ، والخمر بالشمس كقول الشاعر :

اسقنيها بنت كـــرم عتقت عشراً وخمساً

بات بجلوهـا علينـا قمـــر يحمـل شمساً

ولو كان الشاعر شبه الساقى لقال :

شمس يديرها أو يطوف بها أو يحملها بدر[1]

* * *

انتهى كلام الصفدى ، وهو غير محق فيه كما سبق أن قلت والمسألة فى غنى عن الشرح .

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتـــاج النهار إلى دليـــل

* * *

هذا موقف .

* * *

وموقف آخر مشابه له يدور حول قول البحترى :

وتراه فى ظلم الوغى فتخالـه قمرا يكر على الرجال بكوكب

فقد ذهب ابن الأثير إلى أن فيه تشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء :

---

(١) نصرة الثائر ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

فإنه شبه العجاج بالظلمة .

والممدوح بالقمر .

والسنان بالكوكب .

* * *

ويلج الصفدى فى عناده بقوله :

هذا من أنموذج ما تقدم من قوله فى قول الشاعر :

وكأنها وكأن حامل كأسها ... ...

هناك وهم الشاعر فقلده ، وهنا انفرد هو بالوهم دون البحترى ، لأن البحترى ما قال :

وتراه فى عجاج الحرب إذا كر على الرجال برمحه قمراً يجول فى الظلام بكوكب .

ولو كان البيت يفهم منه هذا المعنى كان تشبيه ثلاثة بثلاثة .

وليس فى البيت غير تشبيه واحد ؛ لأنه قال :

تراه فى ظلم الوغى فتخاله قمراً

هذا هو المعنى الذى بنى عليه البيت .

وأما قوله :

يكر على الرجال بكوكب

فمن لواحق القمر ؛ ألا ترى أن الجملة فى موضع النصب على أنها صفة لقمر ؟

ومن العجيب أنه ادعى أن البحترى شبه العجاج بالظلم ، والبحترى جعل العجاج نفسه ظلاما ، ولو أتى ذكر الظلام فى عجز البيت لدخل فى المشبه به ، واندرج بين القمر والكواكب وإنما جاء ذكره فى أصل المشبه[1] .

* * *

(١) نصرة الثائر ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

هذا هو الموقف الآخر .

وأظنه يحتمل شيئا من التوضيح ؛ فقد غفل الصفدى عن إدراك الصور البيانية الموجودة فى البيت وهى :

١ – **تشبيه بليغ** (الطرفان فقط) فى (ظلم الوغى) .

وهو من إضافة المشبه به إلى المشبه .

شبه الشاعر الوغى وهى الحرب بالظلام ، لما تثيره من غبار يحيل النهار ليلا .

٢ – **تشبيه متوسط الدرجة** (الطرفان وركن) فى (تخاله قمرا)

(تخال) هنا هو أداة التشبيه .

والضمير المتصل به وهو المفعول الأول له مشبه .

و (قمرا) مشبه به . وهو المفعول الثانى للفعل (تخال) .

* * *

٣ – **استعارة مكنية** : فى إسناد الفعل (يكر) إلى فاعله ، وهو ضمير القمر .

شبه الشاعر القمر ببطل ثم حذف البطل وأتى بشىء من لوازمه وهو الكر الذى نسبه إلى ضمير القمر .

٤ – **استعارة تصريحية** : فى بـ (كوكب)

شبه السيف بكوكب ، ثم حذف السيف وهو المشبه ، وصرح فى مكانه بالمشبه به وهو كوكب .

* * *

على أننا حين نعمل فكرنا فى قول الصفدى :

« وليس فى البيت غير تشبيه واحد لأنه قال

تراه فى ظلم الوغى فتخاله قمرا .

هذا هو المعنى الذى بنى عليه البيت ، وأما قوله : يكر على الرجال بكوكب .

فمن لواحق القمر ، ألا ترى أن الجملة فى موضع النصب على أنها صفة لقمر » .

أقول : إننا حين ننعم النظر فى هذه العبارة ، يرد على ذهننا تشبيه التمثيل .

إنه تشبيه صورة بصورة ، وينتج عن ذلك أن يكون وجه الشبه كذلك صورة منتزعة من متعدد[1] .

وهنا : صورة الفارس بيده سيفه يحركه فى أى اتجاه يراه .

والحرب على أشدها ، فالغبار كثيف ، والنهار كأنه الليل الحالك .

تلك هى صورة المشبه .

وعلى الجانب الآخر صورة المشبه به ممثلة فى قمر بيده نجم يضرب به فى جنبات الليل ليهزمه .

* * *

أيمكن هذا الفهم ؟

أجل .

ولم لا .

إننا به نكون قد قربنا مسافة الخلف بين الرجلين .

ويكون الصفدى قد أدرك ما فى البيت من خيال كلى .

وركب من الصور البيانية صورة شعرية .

— ٩ —

تعرض ابن الأثير مرارا للصلة بين النحو والبلاغة ، وعالج أكثر من مسألة نحوية .

وفى بعض الأحيان كان يتصور أن ثمة من يعترض على ذلك ويرى الاكتفاء بما جاء فى كتب النحو الخالص .

وقد مر به هذا الخاطر وهو يتكلم عن توكيد الضميرين فقال :

« ولربما قيل فى هذا الموضع : إن الضمائر مذكورة فى كتب النحو فأى حاجة إلى ذكرها هنا ؟

ولم يعلم أن النحاة لا يذكرون ما ذكرته ، لأن هذا يختص بفصاحة وبلاغة ، وأولئك لا يعرضون إليه ، وإنما يذكرون عدد الضمائر ، وأن المنفصل منها كذا ، والمتصل كذا ، ولا يتجاوزون ذلك .

---

(١) انظر الإيضاح للقزوينى جـ ٤ ص ١٣٠ وما بعدها تحقيق وشرح محمد عبد المنعم خفاجى . والبلاغة الاصطلاحية ص٤٣ ط٣ للمؤلف – دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٩٢.

وأما أنا فقد أوردت فى هذا النوع أمراً خارجاً عن الأمر النحوى[1]

* * *

وقد رد عليه الصفدى قائلا : إن نحو المتقدمين غالبه معان وبيان مثل الرمانى وأبى على الفارسى وابن جنى على تأخر زمانهم .

وأكثر ما هو الآن مدون فى علم المعانى مذكور فى كتب القوم .

ولكن لما أتى الإمام عبد القاهر الجرجانى جرد هذه النكت التى ليست بإعراب ولابدّ ، وجمعها ودونها وبوبها ورتبها .

فصار علما قائما برأسه ، وتنبه الناس بعده كالسكاكى وغيره ، وتفتحت لهم الأبواب .

ولهذا إن من لم يكن متمكنا من النحو لا يقدر على الكلام فى هذا .

ألا ترى أن الزمخشرى لما كان عارفا بالنحو تيسر له فى تفسيره مالا تيسر لغيره ، وباقتداره على الإعراب والنظر فى أسرار العربية وتعليل أحكامها أورد تلك الإشكالات ، وأجاب عنها بتلك الأجوبة المرقصة ، وبالنحو استطال ومهر وتبحر .

ودربة فنى النظم والنثر هى التى نبهته لذلك[2]

* * *

والنقد هنا هادىء ؛ لأن الجهة منفكة .

فما يتكلم عنه ابن الأثير إنما هو نحو النحاة المتأخرين .

وإنه لقاصر على ما ذكره .

وما يتكلم عنه الصفدى إنما هو نحو النحاة المتقدمين وهو كما وصفه .

ولو تبادل الرجلان الموقف .

أو لو وقعت نظرة كل منهما حيث وقعت نظرة الآخر ، لقال كل منهما كلام صاحبه .

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ص ١٩١ .

(٢) نصرة الثائر ص ٢٨١ – ٢٨٢ .

ذكر ابن الأثير الإرصاد فقال :

وحقيقته أن يبنى الشاعر البيت من شعره على قافية قد أرصدها له ، أى أعدها فى نفسه .

فإذا أنشد صدر بيت عرف ما يأتى فى قافيته .

وذلك من محمود الصنعة ؛ فإن خير الكلام مادل بعضه على بعض وفى الافتخار بذلك يقول ابن نباتة السعدى :

خذها إذا أنشدت فى القوم من طرب صدورها عرفت منها قوافيها

ينسى لها الراكب العجلان حاجته ويصبح الحاسد الغضبان يطريها

ورأيت أبا هلال العسكرى قد سمى هذا النوع التوشيح وليس كذلك بل تسميته بالإرصاد أولى ؛ وذلك حيث ناسب الاسم مسماه ، ولاق به .

وأما التوشيح فإنه نوع آخر من علم البيان[1] .

* * *

وقد تعصب الصفدى لأبى هلال فقال :

هذا الإرصاد الذى ذهب إلى أنه أليق من التوشيح بالمعنى الذى قرره ، مثاله قول البحترى :

أحلت دمى يوم الفراق وحرمت بلا سبب يوم اللقاء كلامى

وليس الذى حللته بمحلل وليس الذى حرمته بحرام

وهو أن الشاعر يأتى بنصف بيت يفهم منه النصف الثانى ، أو صدر يفهم منه العجز ، أو من البعض يفهم الكل .

وهو دليل التمكن وجودة الطبع .

---

(١) المثل السائر جـ ٣ ص ٢٠٦ – ٢٠٨ .

ووجه المناسبة بين المعنى ، وبين التوشيح : أن ينزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح ، وينزل دلالة ما فى أوله على آخره منزلة الوشاح الجائل عليهما .

وهذا معنى لائق بالمسمى . ونفس اللفظ أعذب فى السمع من الإرصاد[1] .

* * *

انتهى هذا الموقف النقدى بين ابن الأثير والصفدى .

ونعلق عليه بأن ما قاله أبو هلال هو :

سُمِّى هذا النوع التوشيح ، وهذه التسمية غير لازمة بهذا المعنى ولو سمى (تبييناً) لكان أقرب .

وهو أن يكون مبتدأ الكلام ينبىء عن مقطعه ، وأوله يخبر بآخره ، وصدره يشهد بعجزه[2] .

* * *

وإذن فقدظلم ابن الأثير أبا هلال بنسبة هذه التسمية إليه . والحقيقة أن صاحبها إنما هو قدامة بن جعفر الذى أورده فى نقد الشعر ، وجعله من أنواع ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر معنى البيت ، وقال فى تعريفه :

التوشيح : وهو أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته ، ومعناه متعلقا به ، حتى أن الذى يعرف قافية القصيدة التى البيت منها إذا سمع أول البيت عرف آخره ، وبانت له قافيته .

مثال ذلك قول الراعى :

وإن وزن الحصى فوزنت قومى وجدت حصى ضريتهم رزينا

فإذا سمع الإنسان أول هذا البيت استخرج منه لفظة قافيته لأنه يعلم أن قوله (وزن الحصى) سيأتى بعده (رزين) لعلتين :

إحداهما أن قافية القصيدة توجبه . والأخرى أن نظام المعنى يقتضيه ، لأن الذى يفاخر برجاحة الحصى يلزمه أن يقول فى حصاه : إنه رزين[3] .

* * *

(١) نصرة الثائر ص ٣٦٨ .

(٢) الصناعتين ص ٣٧٤ .

(٣) نقد الشعر ص ١٦٦ .

ونحن نسجل على الصفدى عدم معرفته هذا التسلسل ، ولو أنه عرفه لأراح واستراح ، ولظفر بشرف الدفاع عن أبى هلال .

والمسألة قبل وبعد اصطلاح ، ولا مشاحة فى اصطلاح .

وأمر آخر نخرج به من موقف الصفدى

وهو أنه يتعمد مخالفة ابن الأثير ، ثم يذهب فيبرر ذلك بكل ما فى طاقته من تمحل .

— ١١ —

من انحياز ابن الأثير للطبع وحرصه عليه هذا الكلام له . قال :

وقد سلك قوم فى منثور الكلام ومنظومه طرقا خارجة عن موضوع علم البيان ، وهى بنجوة عنه ، لأنها فى واد وعلم البيان فى واد .

فممن فعل ذلك الحريرى صاحب المقامات ، فإنه ذكر تلك الرسالة التى هى كلمة معجمة ، وكلمة مهملة[1] .

والرسالة التى هى حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم[2] ونظم غيره شعراً آخر كل بيت منه أول البيت الذى يليه . وكل هذا ، وإن تضمن مشقة من الصناعة ، فإنه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة[3] .

* * *

انتهى كلام ابن الأثير .

وقد علق عليه الصفدى بكلام طويل قال :

إن الحريرى رحمه الله تعالى لم يأت بما أتى به من هذه الأنواع ،

وادعى أن هذا هو الفصاحة والبلاغة ، وإنما أتى بذلك ليستوعب أنواع الأدب ، ويبين للأديب ما تلزمه معرفته ، وكل ذلك دليل القدرة والتمكن .

ولو أن الحريرى فعل ذلك فى المقامات كلها لكان غير حسن .

* * *

(١) هى المقامة السادسة وانظر شرح الشريشى جـ ١ ص ١٢٣ .

(٢) هى المقامة السادسة والعشرون وانظر شرح الشريشى جـ ٣ ص ٤٩ .

(٣) المثل السائر جـ ٣ ص ٢١٠ .

ومثل هذه الأشياء من اللغز والأحجية والأغاليط ، والإتيان بالكلمة المعجمة وبعدها المهملة ، وبالحرف المعجم وبعده المهمل أو صدر بيت كذا وعجزه كذا ...

كل ذلك لائق بالمقامات .

أما فى الترسل والخطب ، فإنه يكره ويستثقل ؛ لأن الترسل ليس المراد منه التفقه فى الأدب ، وإنما هو إما لهناء أو عزاء أو شكر أو مدح أو وصف أو استعطاف ، أو عتب أو شوق أو غير ذلك .

وسثل هذه الأشياء لا يليق بها التكلف .

على أنه ، وإن كانت هذه الأنواع فى المقامات .

فينبغى أن تكون كاللمع اليسيرة ، لأنها إذا كثرت سمجت . ألا ترى أن العماد الكاتب رحمه الله تعالى لما جعل كلامه مشحوناً بالجناس ، لا تكاد كلمة تخلو من ذلك ثقل على الأسماع والقلوب ، ولم يكن له خفة كلام القاضى الفاضل على القلوب[1] .

* * *

وتعليقنا . أنه لا توجد هنا معركة ولا شبه معركة .

فالناقدان متصافحان .

كل ماهنالك أن ابن الأثير قد شدد النكير على بعض مقامات الحريرى لتكلفه الشديد فيها .

فأتى الصفدى يسترضيه ويقول له : إن الحريرى لم يقصد بهذه المقامات إعطاء نموذج للأدب الجيد ، وإنما قصد التثميل بها لبعض أقسام الأدب .

وقد أتى بما أتى به منها ليستوعب هذه الأقسام من جهة وليبين للأديب ما تلزمه معرفته من جهة .

— ١٢ —

قال ابن الأثير فى موضوع السرقات الأدبية :

كنت سافرت الشام فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، ودخلت مدينة دمشق ، فوجدت جماعة من أدبائها يلهجون ببيت من شعر ابن الخياط فى قصيدة له أولها :

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٦٩ — ٣٧٠ .

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه فقد كاد رياها يطير بلبه

ويزعمون أنه من المعانى الغريبة وهو :

أغار إذا آنست فى الحىِّ أنَّهُ حذاراً عليه أن تكون لحبه

فقلت لهم :هذا البيت مأخوذ من شعر أبى الطيب فى قوله :

لو قلت للدَّنف المشوق فديتُه مما به لا غَرَّتُه بفدائه

وقول أبى الطيب أدق معنى ، وإن كان ابن الخياط أرق لفظا .

ثم إنى وقفتهم عل مواضع كثيرة من شعر ابن الخياط قد أخذها من شعر المتنبى .

* * *

وسافرت إلى الديار المصرية فى سنة ست وتسعين ، فوجدت أهلها يعجبون ببيت من الشعر يَعزونه إلى شاعر من أهل اليمن يقال له عمارة ، وذلك البيت من جملة قصيدة له يمدح بها بعض خلفائها عند قدومه عليه من اليمن وهو :

فهل درى البيت أنى بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم

فقلت لهم : هذا البيت مأخوذ من شعر أبى تمام فى قوله لبعض الخلفاء فى حجة حجها ، وذلك بيت من جملة أبيات خمسة :

يا من رأى حرما يسرى إلى حرم طوبى لمستلم يأتى وملتزم

ثم قلت لنفسى : يالله .

ليس أبو تمام وأبو الطيب من الشعراء الذين درست أشعارهم . ولا هما ممن لم يعرف ولا اشتهر أمره ، بل هما – كما يقال – أشهر من الشمس والقمر ، وشعرهما دائر فى أيدى الناس بخلاف غيرهما . فكيف خفى على أهل مصر ودمشق بيتا ابن الخياط وعمارة المأخوذان من شعرهما ؟ !

وعلمت حينئذ أن سبب ذلك عدم الحفظ للأشعار ، والاقتناع بالنظر فى دواوينها[1] .

* * *

(١) المثل السائر جـ ٣ ص ٢٢٣ – ٣٢٥ .

يجمل الصفدى ذلك ثم يقول غير ناقض كلام ابن الأثير ولا راد له : إن سبب خفاء السرقة فى هذين البيتين وغيرهما ، أن الأصل يكون ركيكا غير مستعمل ولا دائر على الألسنة فى المكاتبات والمحاورات والأمثال ، فيأتى بعض الشعراء إلى ذلك المعنى الخامل ، ويبرزه فى صورة حسناء ، ويسبكه فى قالب أرشق وألطف من الأول ، فيحلو ويعذب ، ويتداوله الناس ، ويعود الأول نسيا منسيا كأن لم يكن ، كما إذا بدا النجم ثم يبدو البدر من بعده ، فلايشتغل البصر بالنجم ويدع البدر ، وما أحسن قول أبى تمام :

أعندك الشمس تزهى فى محاسنها وأنت منشغل الأحشاء بالقمر

ولايلتفت فى الثانى إلاإلى حسنه من غير بحث عن أصله، وهل هو مسروق أو مبتدع .

* * *

على أن الأديب لو أنه ما عسى أن يكون من النقل والاطلاع ليس فى إمكانه استخراج كل معنى يمر به من غير روية ولا تتبع لذلك خصوصاً فيما عذب وساغ وبرز فى صورة غير صورته الأولى .

ولاشك أن قول ابن الخياط أعذب من قول المتنبى ، ولهذا اشتهر ، وكذا قول عمارة أحسن وأرق من قول أبى تمام ؛ ولهذا ساغ واشتهر ، واستعمل مثلا ، على تأخر زمانه ، وتقدم زمان أبى تمام ، خصوصاً عجز بيت عمارة ، فإنه ذاع وضاع وملأ الأفواه والأسماع[1] .

* * *

والصفدى هذه المرة – كما كان فى المرة السابقة – لا يرفض الظاهرة الأدبية التى سجلها ابن الأثير .

فهو لا ينكر أن ابن الخياط أخذ من المتنبى .

ولا أن عمارة أخذ من أبى تمام .

لا ينكر الصفدى ذلك ، بل يقره ويبرره .

وهو بهذا ممن يتساهلون فى الأخذ ، ويقولون بالسرقة الحسنة .

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٧٦ .

ومن السرقة الحسنة هذا الضرب من أضرب السلخ ، وهو أن يؤخذ المعنى ، ويسبك سبكا موجزا .

يقول ابن الأثير : إن ذلك من أحسن السرقات لما فيه من دلالة على بسطة الناظم فى القول ، وسعة باعه فى البلاغة .

فمن ذلك قول بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

أخذه سلْمُ الخاسر — وكان تلميذه — فقال :

من راقب الناس مات غما ... وفاز باللذة الجسور

فبين البيتين لفظتان فى التأليف[1] .

* * *

ولا يرضى الصفدى بالكلمة وحدةً قياسيةً فى الميزان النقدى بل ينزل إلى الحرف ، واسمع قوله :

ما أنصف سَلمَ الخاسر ، وما يقال فى هذا : بينهما لفظتان فى التأليف إذ اللفظة تصدق على الحرفين مثل من وعن وما ... وغير ذلك .

بل على الحرف الواحد كباء الجر ولامه .

والأحسن فى هذا أن يقال : بينهما تسعة أحرف ، فإن الأول أربعة وأربعون حرفاً ، والثانى خمسة وثلاثون حرفًا ، وكذا قول أبى العتاهية :

وإنى لمعذور على فرط حبها ... لأن لها وجها يدل على عذرى

أخذه أبو تمام فقال :

له وجه إذا أبصرته ... ناجاك عن عذرى

(١) المثل السائر جـ ٣ ص ٣٥٧ — ٣٥٨ .

الأول أربعة وأربعون حرفا ، والثانى ستة وعشرون حرفا فبينهما ثمانية عشر حرفا[1] .

* * *

الناقدان هنا دقيقان ، والفرق بين مقياسيهما ليس فرقاً فى النوع وإنما هو فرق فى الدرجة .

— ١٤ —

فرصة الكاتب فى التعبير أكبر من فرصة الشاعر ، وحظه من هذه الناحية أحسن ؛ لأن الشاعر إذا أراد أن يشرح أمورًا متعددة ذوات معان مختلفة فى شعره ، واحتاج إلى الإطالة بأن ينظم مائتى بيت أو ثلاثمائة أو أكثر من ذلك ، فإنه لا يجيد فى الجميع ولا فى الكثير منه بل يجيد فى جزء قليل ، والكثير من ذلك ردىء غير مَرضى .

والكاتب لا يؤتى من ذلك بل يطيل فى الكتاب الواحد إطالة واسعة تبلغ عشر طبقات من القراطيس أو أكثر وتكون مشتملة على ثلاثمائة سطر أو أربعمائة أو خمسمائة وهو مجيد فى ذلك كله .

* * *

هذا كلام ابن الأثير ، وهو مسلم له ، فليس الشعراء شعراء فى كل ما ينظمون ، والقليل من شعرهم هو الذى نستطيع أن نقول عنه : إن القصيدة منه شعر كلها .

ولو أن ابن الأثير اقتصر على هذا الكلام له لسلم من المؤاخذة لكنه استطرد منه إلى قوله بعده :

وعلى هذا فإنى وجدت العجم يفضلون العرب فى هذه النكتة المشار إليها ، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفا من أوله إلى آخره شعرا ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك فى غاية الفصاحة والبلاغة فى لغة القوم .

كما فعل الفردوسى فى نظم الكتاب المعروف « شاهنامه » وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنه ليس فى لغتهم أفصح منه .

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٨١ .

وهذا لا يوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر[1] .

* * *

بهذه العبارة المثيرة ختم ابن الأثير كتاب « المثل السائر » . وقد شمر الصفدى عن ساعد الجد فى نقدها ، فقال وأطال . وهذه مقتطفات مما قال :

قد ختم ابن الأثير رحمه الله تعالى كتابه بهذه النكتة التى مال فيها إلى الشعوبية ، وما قال معمر بن المثنى ولا سهل بن هارون ولا ابن غرسية فى رسالته مثل هذا .

* * *

وقد وجد فى أهل اللسان العربى من نظم الكثير أيضًا .

وإن عدَّ هو الفردوسى ، عددت له مثل ذلك جماعة منهم من نظم تاريخ المسعودى نظما فى غاية الحسن .

ومنهم من نظم كتاب « كليلة ودمنة » فى عشرة آلاف بيت .

وأخبرنى الشيخ الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد الذهبى أن مكى بن أبى محمد الدمشقى نظم كتاب المهذب قصيدة على روى الراء سماها البديعة فى أحكام الشريعة » والمهذب أربع مجلدات .

وبعض المغاربة امتدح سيدنا رسول الله ﷺ فى قصيدة عدتها ثمانية عشر ألف بيت .

ولابن الهبارية كتاب « الصادح والباغم » فى ألفى بيت .

وأما من نظم الألف وما دونه فكثير جدا لا يبلغهم الحصر .

وأما قوله إن كتاب شاهنامه ستون ألف بيت كلها فى غاية الحسن من الفصاحة والبلاغة ، وما فيها ما يعاب .

فإن هذه الدعوى لا تسمع مجردة عن البرهان الذى يؤيدها .

---

(١) المثل السائر جـ ٤ ص ١١ – ١٢ ، ونصرة الثائر ص ٣٨٤ .

ومن يأتى بستين ألف كلمة تكون فى غاية الفصاحة فى الألفاظ ، والبلاغة فى المعنى ، حتى إنها لاتعاب بوجه ؟ !!

هذا ليس فى قوى البشر فى لغة من اللغات .

* * *

سلمنا أن ذلك ما يعاب فى تلك اللغة .

فمن أين لك أن جيد شعر العجم فى طبقة جيد شعر العرب ؟ !! !

كما تقول :

القمر أشد نورًا من النجوم

والشمس أشد نورًا من النجوم

فالشمس والقمر اشتراكا فى الفضيلة على النجوم

ولكنهما فى نفسيهما لا يستويان مثلا .

فهل جيد العجم مثل جيد العرب .

كوصف امرىء القيس فى الخيل .

والنابغة فى الاعتذار .

وزهير فى المدائح .

والأعشى فى الخمر .

أو كجيد جرير والفرزدق والأخطل وبشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبى نواس ودعبل الخزاعى والحسين بن الضحاك والمتنبى وأبى تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز وأبى فراس وغيرهم وإلى هذا العصر ، وما بين ذلك من الشعراء الذين تغرق قطرات العجم فى لججهم .

* * *

وإنما قلَّ الجيد فى الشعر لأن البلغاء وعلماء الأدب انتقوا الجيد العالى الذى يكون نهاية فى الفصاحة والبلاغة ، وجعلوه أنموذجاً ومثالا يحتذى على ما قرروه بقوة فكرهم وصحة انتقادهم ، فكان ذلك الجيد فى الطبقة العليا .

ولا جرم أن الساقط من الشعر أكثر من العالى عند أئمة البلاغة ، وإلا فعلى الحقيقة الذى يعده أرباب البلاغة من ساقط الشعر يكون جيدًا عند غيرهم ، غير معيب إلا ما هو ساقط إلى الغاية .

وهذه النكتة هى العلة فى قلة الجيد من الشعر .

* * *

ومن أين فى شعر العجم ما فى شعر العرب من المجاز على اختلاف كل نوع من هذه الأنواع وتشعب أقسامه، إلى غير ذلك من أنواع البديع ، وهو ما يقارب المائة نوع .

هيهات ما بينهما صيغة (أفعل) .

وقد أنصف ابن خلف فى قوله : « للعرب بيت وديوان ، وللعجم قصر وإيوان » .

* * *

وأما دعواه أن الشاعر لا يحسن فى الأكثر .

فالعذر فى ذلك ظاهر ، لأنه فى ضائقتين شديدتين إلى الغاية ، وهما الوزن ولزوم الروى الواحد .

والناثر غير مضطر إلى شىء منهما ، بل هو مخَلىً ونفسه ،

إن شاء أتى بسجعتين على حرف واحد ، وإن شاء على أكثر ،

وإن شاء أتى بالسجعة على عشرين كلمة أو على أقل إلى كلمتين .

ولو أتى الكاتب برسالة مطولة على حرف واحد فى سجعه ، وعدد مخصوص فى كلمات السجع لكان حاله حال الشاعر ، بل كان كلامه أسمج وأثقل على الأسماع والقلوب ؛ لأن الشعر يروجه الوزن ولا كذلك النثر .

فحينئذ لا يصلح هذا أن يكون فضيلة فى النثر على النظم[1] .

* * *

(١) نصرة الثائر ص ٣٨٥ – ٣٩٠ .

هذا الرد القوى الخصب ، قد عالج إلى جانب الشعوبية كثيرًا من القضايا النقدية .

وسنقف منه عند الأمور الآتية :

١ – **الشعوبية** : لم يتهم الصفدى ابن الأثير بالشعوبية كما فهم البعض[١] .

لأنه لم يزد على أن قال له :

قد ملت بكلامك هذا إلى الشعوبية ، وقلت ما لم يقله المشتهرون بها .

لكأنه يعتب عليه قائلا له : ماذا تركت للشعوبية وأهلها ؟ !

ولننبه إلى أن الصفدى قد سمى ما قاله ابن الأثير فى هذا الشأن (نكتة) .

٢ – **القلة والكثرة فى عدد الشعراء** : وللصفدى هنا الغلبة ، لأنه إذا كان ابن الأثير قد سمى شاعرًا فارسيًا واحدًا هو الفردوسى .

فإن الصفدى قد رد بخمسة شعراء نظموا القصيدة المتدرجة فى طولها من الألفين إلى الثمانية عشر ألفًا .

ولسنا نعلم عدة « البديعة فى أحكام الشريعة » .

لكن أصلها النثرى كان أربع مجلدات .

أما من نظم الألف وما دونه ، فلا يبلغهم الحصر كما قال .

* * *

ولنلاحظ أن الصفدى قد عد النظم شعرًا فلم يفرق – وهو الشاعر الناقد – بين الشعر بمعناه الفنى، وبين نظم العلوم فى ملخصات أومتون؛ جمعًا لشملها وتسهيلا لحفظها.

* * *

وعلى الرغم من هذا الخلط بين الشعر والنظم لا تمضى المقارنة لصالح العرب ، إذا وازنا بين قصيدتهم وبين ملحمة الشاهنامة ، فالشاهنامة ستون ألف بيت ، ولم يتجاوز طول القصيدة العربية الثمانية عشر ألفًا يقينا ، والعشرين أو الخمسة والعشرين تخمينا .

---

(١) انظر نصرة الثائر على المثل السائر هامش رقم ١ ص ٣٨٥ .

٣ – دعوى ابن الأثير اطراد الجودة فى الشعر الفارسى وعدم اطرادها فى الشعر العربى : وهذه دعوى باطلة من وجهة نظر الحق والنقد ، ومن وجهة نظر الصفدى ؛ فكما قلنا :ليس الشعراء شعراء فى معظم شعرهم ، وكما قال الصفدى على سبيل التحدى :

ومن يأتى بستين ألف كلمة أو بستة آلاف كلمة لا تُعاب ؟ !

ولما لم يكن لسؤاله جواب قال :

هذا ليس فى قوى البشر فى لغة من اللغات .

٤ – كمية الجودة : أقصد كمية الشعر الجيد فى الأدبين العربى والعجمى .

والقائمة الحافلة بأسماء كبار الشعراء مع إضافة كل شاعر إلى الفن الذى برع فيه ، وتقوية الصفدى لهم بغيرهم ، وبمن بينهم إلى عصره .

هذا الطوفان من الشعراء العرب كفيل بطى القطرات العجمية فى اللجة العربية .

٥ – مثالية النقد : ومثالية النقد هى السبب فى قلة ورود الشعر الجيد .

فالنقاد ، وربما الشعراء ، ولاسيما المحككون يغربلون الشعر غربلة زائدة عن الحد .

وهذه الغربلة الزائدة عن الحد تسقط الكثير مما لم يكن ليسقط لو ضيق النقاد فتحات غرابيلهم وجعلوها مسام أو شيئاً كالمسام .

٦ – البلاغة واللغة : والرأى عندى أن الصفدى قد بالغ فى ذلك إلى حد الإحالة والخطأ ، فالصور البلاغية هى أعمدة الكلام فى أية لغة ، عليها المعول فى التوسع والتصرف وبها يتوصل الأديب شاعرًا أو كاتبًا إلى تعميق المعنى ، وتزيين اللفظ .

وكما اطردت اللغات قبل أن يفطن متكلموها إلى قواعدها النحوية ، وقع الأدباء على الصور البلاغية دون معرفة نظرية بها ولا وعى تحليلى لطرق استعمالها .

كل ماهنالك أن ملكات الشعراء قد انتزعتها من الأشياء ، أو أن الأشياء قد أملتها على الشعراء .

ومن الصور البلاغية الكناية .

وهى أسلوب حضارى ، لأنها التعبير عن المعنى القبيح باللفظ الحسن . وسر جمالها أن فيها الدعوى ودليلها .

فهل هذا كله خاص بالعرب وبلغتهم ؟

أم أن العالم جميعه ، واللغات كلها مثلهم ومثلها ؟ !!

* * *

وهذا التعصب للغة الأدب له جذور فى تربة العرب .

وجدناه قبل الصفدى عند ابن رشيق فى العمدة :

فقد جعل الباب السادس والثلاثين فى المجاز ، واستفتحه بقوله : العرب كثيرًا ما تستعمل المجاز وتعده من مفاخر كلامها ، فإنه دليل الفصاحة ورأس البلاغة ، **وبه بانت لغتها عن سائر اللغات**[1] .

وفى مكان آخر يقول : والاستعارة إنما هى من اتساعهم فى الكلام اقتداراً ودلالة ليس ضرورة ، لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، وليس ذلك فى لغة أحد من الأمم غيرهم[2] .

وابن رشيق مخطىء ، فالكلمات فى الأسلوب الأدبى – أيا كانت لغته – تتردد بين الحقيقة والمجاز .

وبعد فهذه الأدلة الخطابية ، وتلك الدعاوى العشوائية شعوبية عربية فى مواجهة الشعوبية مطلق شعوبية .

٧ – ما ذهب إليه ابن الأثير وأقره عليه الصفدى من أن الشاعر يوفق فى الأقل ، ولا يوفق فى الأكثر .

وقد قلنا إنها قضية نقدية معترف بها من كل النقاد على مستوى العالم وفى جميع الأزمنة .

وقد توارد عليها مع ابن الأثير والصفدى الناقد الإنجليزة هـ . ب . تشارلتن قال :

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٦٥ – ٢٦٨ .

(٢) العمدة جـ ١ ص ٢٧٤ .

الواقع أن عددًا قليلا جدًا من القصائد هو الذى نستطيع أن نقول عنه : إن القصيدة منه شعر كلها من الفاتحة إلى الختام ، وأما الكثرة الساحقة مما نعده شعرًا جيدًا ، فلا تكون القصيدة شعرًا صادقًا إلا فى بعض أجزائها ، وتلك الأجزاء هى التى يبلغ فيما التعبير حد الكمال ، فليس الشعراء شعراء فى كل ما ينظمون[1]

* * *

ويذهب الصفدى بفضل التعليل لهذه الظاهر الأدبية ، وهو تعليل مزدوج ، لأن الصعوبة فى الشعر مزدوجة .

* * *

أما بعد :

فأنا أرجو أن تتسع هذه الفقرة للرقم :

٨ – **وسأشغله بتحية الصفدى ، وتسجيل تقديرى العظيم له** ، وإعجابى الشديد به لختمه كتابه بقوله :

وليكن ها هنا آخر ما أردته من الكلام على المثل السائر ، وقد سامحته فى كثير سقطه فيه ظاهر .

على أننى لا أنكر ما قاله فيه من الإحسان ، والنكت التى هى لعين هذا الفن إنسان .

فإنه لم يأل جهدًا فى التوقيف الذى وقفه ، ولم يقصر فى التثقيف الذى ثقفه ، وقد نبه على مَحزَّات هذا الفن ، وأشار إلى اقتناص ما شرد منه وما عن » .

الله !! ! ما أنبل هذا الرجل وما أعدله !! !

إنه بهذه العبارة القصيرة الحلوة قد حقق نظرية التعادلية فى النقد بين المحاسن والمساوىء ، وطبق النقد الجملى ، وهو يقوم أكثر ما يقوم على ذكر ما للأديب وما عليه ، بل ذكر ما للأديب قبل ما عليه .

إن الصفدى ناقد محايد .

ثم هو رجل حضارى .

---

(١) فنون الأدب ص ١٠١ – ١٠٢ .

ها هو ذا يصافح ابن الأثير فى ختام جولته معه شاكرًا أنعمه .

* * *

وقد بقى فى كتاب الصفدى ثلاثة أسطر .

ماموضوعها ؟

وبماذا شغلها ؟

إنه فيها كيميائى فى صيدلية الأدب .

انظر !! !

ها هو ذا يطب لنا بعمل تركيبة مفيدة .

قال فى تواضع متواضع ، وفى إخلاص مخلص :

وإذا اتفق للكاتب أو الشاعر مراجعة المثل السائر ، والفلك الدائر ، وهذه الأوراق !! !

فلا مرية فى أن ذلك يفيده فوائد جمة ، ويتنبه لموارد الخطأ فيجتنبها ، ويتيقظ لمواقع الحسن فينتجعها .

وقد أُهديتها لك وهى عنـدى على الأيام من أزكى الهدايا » .

* * *

على العين والرأس هديتك ياصفدى .

وهى عندى فى عقلى وقلبى .

سلام عليك فى الخالدين وفى عليين آمين .

تعقيب

فى التعقيب على هذا الفصل أقرر أن كتاب « نصرة الثائر » أدخل فى باب النقد من « الفلك الدائر » ؛

ففيه من الموضوعية والجدية أكثر مما فى الفلك .

وهو كتاب مقصود لصاحبه ما فى ذلك شك .

وصاحبه فيه أديب مثلما هو ناقد ، أو أديب قبلما هو ناقد . ذوقه فنى ، وحسه أدبى .

فى عبارته على الرغم من علميتها شفافية .

ونراه من خلالها رجلا شاميا ذكيا له قبول وبشاشة وعليه سيما الاحترام والهيبة .

* * *

وكتابه – من حيث المآخذ التى أخذها على ابن الأثير – قسمان :

قسم هو فيه أول ووحيد .

وقسم هو فيه مشارك ومكمل لابن أبى الحديد .

* * *

وإذا كان القسم الأول هو موضوع هذا الفصل .

فإن القسم الثانى هو موضوع الفصل الثالث .

* * *